

الشيخ على يوسف

(١٨٦٨-١٩١٣)

رائد الصحافة المصرية الأول

(مدرسة المؤيد)

كان الشيخ على يوسف هو أول مصري يصدر جريدة يومية تقف من الاحتلال موقف المعارضة من منطلق وطني حيث كانت الصحافة في ذلك الوقت في أيدي أجناب لذلك أطلقوا عليه رائد الصحافة المصرية الأول ولعبت جريدة المؤيد دوراً مهماً في التضال الوطني ضد الاحتلال البريطاني وظلت منذ أنشأها الشيخ على يوسف لمساعدة رموز الحركة الوطنية المصرية في عام ١٨٨٩ مهاجم الاحتلال البريطاني بعنف حتى عام ١٩٠٠ ثم تحولت تحت تأثير الخديو عباس إلى مهادنة للاحتلال ويكشف ذلك عن إحدى سلبات تبعية الصحافة للسلطة فعندما تسيطر السلطة على المضمون التحريري للصحف فإنها تتجح في الانحراف بها عن وظيفتها الأساسية في التعبير عن أهداف الشعب وطموحاته المشروعة في التحرر السياسي والاجتماعي والثقافي. كان على يوسف يرتجل صناعته الصحفية في كل شيء في التقاط الأخبار وفي جمع الآراء وفي تحرير المقالات وفي سياسة الجمهور وسياسة ولاة الأمور. وقد ظهر ذلك في قضية التفرفقات التي أحيل من أجلها إلى القضاء: لأنه كان يستطلع أخبار الحملة على السودان قبل وصولها إلى ديوان الوزارة لأنه كان على صلة بموظف المكتب التي يتلقاها، ولم يكن أحد يعرف ذلك وكانت تعبئة الآراء كما يرى عباس العقاد قبل هذا الجيل لازمة وعسيرة في وقت واحد. بل كانت إدارتها كلها مجهولة مخترعها كل صاحب صحيفة على سنته في اختراع هذه الأدوات المرتجلة.

أما على يوسف فقد كانت وسيلته لتعبئة الآراء أن تكون شخصية بينه وبين نفسه وصحبه ومن يرجع إليهم في حياته الخاصة أو يرجعون إليه ويظهر ذلك عندما اتهم اللورد كرومر هذه الأمة (مصر) بالتعصب الديني وعداوة الأجناب فقام الشيخ على يوسف بجمع نماذج الآراء التي تدفع هذه التهمة عن كل صاحب صفة، وكان يرشحه لإبداء الرأي فيها فقال الخواجة ميماراكي اليوناني «أشهد أنني ما شعرت قط في معاملاتي مع المصريين بأنني أعامل أناساً يخالفونني في العقيدة» وقال الفرنسي وكيل مصرف الكريدي ليونيه الفرنسي: «إننا لا نشعر بهذا التعصب الذي اتهمت به الأمة المصرية.. اللهم إذا كان التعصب موجوداً في غير الدائرة التي إليها معاملاتنا» وقال شكور باشا الإداري اللبناني «إنني أفضل أن أمشي في جهات السيدة زينب والنحاسين على أن أمشي وحدي ليلاً في جهات مونتارتر بضواحي باريس». وقال إسكندر عمون المحامي: «إن المصري أكثر إكراماً للغريب من سائر الشعوب». وقال باسيلي تادرس باشا: «لا صحة لما يقال من وجود التعصب الديني والجنسي في مصر». وحين سأل الشيخ كلاً من السيد عمر مكرم والشيخ محمد بغيت من رجال الدين الإسلامي لم ينس أن يسأل رجلاً ينكر الأديان جميعاً وهو الدكتور شبلي شميل الذي قال: «إن التعصب غير

موجود في مصر على الإطلاق». تلك هي طريقته في الدفاع عن قضايا الصحافة والسياسية فدائمًا ما يدعم رأيه برأى أصحاب الشأن ويرد بالحجج والبراهين القاطعة التي تخرجه منتصرًا لرأيه ووجهة نظره.

وُلد على يوسف بقرية نائية في صعيد مصر تسمى «بلصفورة» وتوفى والده بعد عام من ولادته ولم يترك ميراثًا مما اضطرَّ أمه إلى الانتقال به إلى بلدتها «بنى عدى» التابعة لمركز منفلوط بمحافظة أسيوط حيث قام أخواله بتربيته، وفي تلك النشأة يرى الدكتور محمد حسين هيكل أن اعتدال على يوسف إزاء الإنجليز كان سببه أنه من أبناء الفلاحين الذين لم ينسوا حكم الأتراك ومظالمهم، ورغم هذه النشأة التي ذاق فيها على يوسف مرارة الحرمان نجده لا يتخذ مواقف إصلاحية بارزة خاصة في قضية العدالة الاجتماعية وذلك يرجع إلى أن الحركة الوطنية ركزت بشكل أساسي على القضية الوطنية الكبرى وهي الاستقلال. كما أن على يوسف ربط نفسه بسياسة الخديو عباس وربما كان هذا الارتباط عاملاً أساسيًا في إهماله بقضية العدالة الاجتماعية ومعاناة الفلاحين الفقراء الذين نشأ بينهم.

بدأ على يوسف في دراسة العلوم الدينية في كُتَّاب قرية بنى عدى حيث أتم حفظ القرآن الكريم وهو في سن الثانية عشرة من عمره وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة حوالي ١٨٨١م ليلتحق بالأزهر بهدف أن يصبح فقيهاً أو مُعلِّمًا، وقد حاول على يوسف أن يتقن نفسه بقراءة كُتُب التاريخ والأدب والشعر لكنه لم يُكمل دراسته الأزهرية ولم يحصل على شهادة العالمية فكان هناك نقص واضح في ثقافة على يوسف وهو جهله باللغات الأوروبية وربما كان ذلك عيبًا كبيرًا في الصحفي فالقن الصحفي هو فن أوروبي، لكنه عوّض ذلك بالنقص باطلاعه على البرقيات التي تصل إلى المؤيد من وكالات الأنباء الأجنبية بعد ترجمتها وكان يطلع على كل ما يكتبه الأجانب في المسائل المصرية، وكان يطلع أيضًا على الكتب المترجمة من الفرنسية إلى العربية بالإضافة إلى قوة ذاكرته وذكائه وفطنته. بدأ على يوسف خلال دراسته بالأزهر يتجه إلى نظم الشعر حيث استطاع نشر ديوان كامل عام ١٨٨٥ بعنوان «نسمات السحر» ولكنه لم يحقق نجاحًا في مجال الشعر.

بدايات صحفية ومدرسة المؤيد

اتجه الشيخ على يوسف للصحافة حيث أخذ يرسل مقالاته إلى الصحف ثم ساعد أحمد فارس الشدياق في تحرير جريدة القاهرة بعد ذلك محررًا بجريدة مرآة الشرق ووصل على يوسف إلى رئاسة تحريرها بعد عام ١٨٨٤، ولكنها توقفت في عام ١٨٨٦م ففكر على يوسف بعد ذلك في إنشاء جريدة أدبية وقد واجه صعوبات كثيرة منها ضرورة الحصول على رخصة

بإصدار الجريدة وعدم وجود رأس المال اللازم لها لكنه بمعاونة الشيخ أحمد ماضى زميله فى الأزهر استطاع إصدار جريدة الآداب عام ١٨٨٧ ولم يمض على إصدار هذه الجريدة الأدبية عامين حتى أخذت حظها من الانتشار والرواج وقد عرف الوطنيون الشيخ على يوسف من خلال هذه الجريدة فجاء إصداره لجريدة «المؤيد» عام ١٩٨٩ بمعاونة رجال الحركة الوطنية. وقد كانت أهم خطوة فى حياته حيث أثبت على يوسف كفاءته كمخبر صحفى. فقد استطاع التغلب على الحظر الذى فرضته الحكومة المصرية المتلزمة بنصائح لورد كرومر على الأخبار وخاصة بالنسبة لجريدة المؤيد من خلال إقامة علاقات مع موظفى الدواوين والحصول منهم على الأخبار واستطاع على يوسف تحقيق انتصارات صحفية والانفراد بنشر أخبار كانت ذات أهمية كبيرة بالنسبة للشعب المصرى. وكان أهمها نشر التلغراف السرى الذى أرسله كتشنر سردار الجيش البريطانى إلى وزير الحربية. وقد اتضح من خلال هذه القضية التزام على يوسف بمبدأ من أهم مبادئ الصحافة الحديثة وهو حق الصحفى فى الاحتفاظ بسرية مصادر أخباره وعدم الكشف عن أسماء هذه المصادر وهو ما يعرف بسر المهنة. وقد أصبح هذا المبدأ من أهم المواد التى تتضمنها موثيق الشرف الصحفى فى كل دول العالم. أدرك على يوسف أن الإعلام هو أهم وظائف الصحيفة اليومية وأن الجريدة التى لا تقوم بوظيفتها فى إعلام الرأى العام بالحقائق تتخلى عن وظيفتها الأساسية وبالتالي تتعرض لخطر انصراف القارئ عنها، وقد واجه على يوسف منافسة شديدة فى مجال التغطية الخبيرة خاصة من جانب جريدة «المقطم» التى اختصها كرومر بالأخبار لكى تحقق رواجًا، ورغم ذلك فإن «المقطم» بكل ما كان يعرضه من تفاصيل وكل ما ينفرد به لم يكن يقدم كل ما يتوافر لديه من أخبار حرصًا على حجب ما تريد السلطات البريطانية عدم نشره وما فيه من إساءة لرجال الاحتلال على الجانب الآخر كان على يوسف ينشر أخبار تسمى إلى الاحتلال ورجاله، قام على يوسف أيضًا بدور المراسل المتجول لجريدة المؤيد خاصة فى أثناء زيارات الخديو عباس لتركيا وأوروبا. وقد أثبت فى هذا المجال قدرة كبيرة حيث رافق الخديو عباس فى أول زيارة له إلى تركيا وقام بإمداد «المؤيد» بوصف تحليلى وتفصيلى لهذه الرحلة فى ١٢ رسالة قام بجمعها بعد ذلك فى كتاب بعنوان «أيام الجناب الخديو المعظم فى دار السعادة» وقد اتخذت هذه الرسائل شكل المقال ولم يفصل على يوسف فيها بين الخبر والتعليق وربما كان ذلك لرغبته فى توظيف هذه الأخبار لخدمة أغراض سياسية وهو أسلوب دعائى وليس أسلوبًا صحفياً. إن رغبة على يوسف فى مدح الخديو عباس والدفاع عنه جعلته يتناسى قاعدة مهمة من قواعد التحرير الصحفى وهى الفصل بين الخبر والتعليق وضرورة أن يقوم المحرر بكتابة الخبر بموضوعية ودون تدخل منه أو إقحام رأيه فى الخبر. لكن الشئ المؤكد هو أن الشيخ على

يوسف له دوراً مهماً في تطوير المقال الصحفي فلغة المقال الصحفي عنده تنقسم إلى ثلاثة أجزاء.

أولاً: سهولة الألفاظ حيث أدرك أنه يكتب في جريدة يومية يخاطب من خلالها الرجل العادي ومن ثمَّ يجب ترك الألفاظ الغريبة وغير المألوفة في اللغة والكلمات غير المتداولة.

ثانياً: البعد عن الأساليب البلاغية القديمة مما اعتبر بعض الباحثين الشيخ على يوسف بداية كمدرسة التجديد في الصحافة المصرية والتي نقلت أسلوب الكتابة من قيود الماضي التي التزمت بها صحافة مصر منذ نشأتها حيث كان النثر العربي يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع. إن تحرر أسلوب على يوسف من الزخرفة اللفظية والمحسنات البديعية لم يأت فجأة لكنه في بداياته كان يستخدم الزخرفة اللفظية والمحسنات البديعية ثم وجد أن ظروف الحركة الوطنية التي تواجه الاستعمار الإنجليزي وظروف القارئ العادي في حاجة إلى أسلوب جديد خال من قيود البلاغة العربية القديمة.

ثالثاً: استخدام الأساليب العصرية والعبارات المتداولة في الكتابة وهو تطور صحب التخلص من الأسلوب القديم حيث استخدم المصطلحات الجديدة التي لها أهميتها في الحياة العصرية للمجتمع المصري مثل الحكومة والأمة والوطن وواجبات المواطن.

أما مضمون المقال الصحفي عند على يوسف يتميز باستخدام الأسلوب المنطقي في الإقناع وقد اكتسب هذا الأسلوب من خلال دوره في الحركة الوطنية ودفاعه عن حقوق مصر في مواجهة الاستعمار، ولذلك فقد اتجه إلى المناقشة العقلية لحجج الاستعمار البريطاني ومؤيديه والبعد عن استخدام أسلوب الاستعمالات العاطفية مما جعل البعض يسميه بالأسلوب السياسي فقد كان أسلوب على يوسف في المؤيد ينير الطريق ويناقش المسائل في هدوء. ويعلق على الحوادث تعليقاً حكيماً ودقيقاً وينتقد ولاية الأمور في الصميم في حين كان اللواء يثير الجماهير ويهيج الشعب ويبعث الحقد في النفوس ويوقظ الكراهية في القلوب. يتميز أسلوب على يوسف أيضاً بالآتي:

- ١ - الرد على الحجج التي يثيرها الخصوم السياسيون بعد عرضها وتقنيدها.
 - ٢ - صياغة أجزاء من المقال على شكل مقدمات ونتائج.
 - ٣ - التمهيد للنتائج بمسلمات لا تقبل الشك.
 - ٤ - استخدام أسلوب الاستفهام الاستكاري.
 - ٥ - اعتماد الكاتب على الواقع المحسوس يشق منه الدليل على صحة رأيه في مسألة ما.
- أيضاً كان المقال الصحفي عند على يوسف يتضمن أجزاء من التاريخ العربي والإسلامي والمصري خلال مقالاته، لذلك يقول عنه الخديو عباس إن على يوسف قد نجح في بعث

الإحساس في قلوب مواطنيه بشخصيتهم القومية لكثرة ما استمعوا إلى الحديث عن علاقات مصر وعن ماضيها وحقوقها فكان على يوسف حلم بأحداث التاريخ وكان استشهاده بالتاريخ العربى والإسلامى والمصرى يهدف إلى بعث الإحساس بالروح القومية فمصر تطلب لنفسها حكومة دستورية لأن الشورى من قواعد أحكام الشريعة الإسلامية فى إدارة شئون الأمة تلك الشورى التى وجدت فى الإسلام قبل أن توجد فى إنجلترا الدستورية المنظمة. وفى أسلوبه أيضاً وضوح المعانى وترابط الأفكار وتمتعه بالخطابة السياسية وعلى الرغم من صلته المعروفة بالخدويو فإنه كان يجيد الانتصار للقضايا العامة على نحو ليس فيه أدنى تقريط فى حق من حقوق الشعب.

الشيخ على يوسف ومصطفى كامل

يرى المحللون أن على يوسف ومصطفى كامل لهما طريقتان مختلفتان فى الكتابة وفى الخطابة السياسية وفى الدعوة الوطنية ولقد فرق النقاد بينهم أن طريقة مصطفى كامل هى طريقة التطرف والحماسة وأن طريقة على يوسف هى طريقة المحافظة والاعتدال. ويرى فريق آخر أن الفرق بينهما هو الفرق بين التعليم الحديث والتعليم القديم أو الفرق بين الشباب والكهولة أو الفرق بين السياسة القومية وسياسة القصر والحاشية الخديوية أو الفرق بين الخطيب المنطلق والكاتب الحصيىف.

أما عباس العقاد فيرى الفرق الوحيد هو شعور العصامية فى نفس الرجل الذى كان مثله الأعلى فى الحياة أن يصل باجتهاده وحيلته إلى مكانة السيد الموقر وكان من حق العصامية الناجحة عند على يوسف أن يتكلم مع ذوى الاعتبار كما يتكلم ذوى الاعتبار فهو لا يرضى السياسة على مذهب الرعاع بل يرضها على مذهب النبلاء والأرستقراطيين.

وكان الشيخ على يوسف دائماً ما يصف مصطفى كامل بالطائش ويكثر من وصف سياسيته بالطيش، وقد كان الشيخ على يوسف يكتب عن خصوم القصر الخديو جميعاً فيبيح لقلمه من المفامز فى الكتابة عنهم ما يرضى القصر ويستجيب لأمره وإيعاهز لكنه كان يرفض بشدة أن يهاجم رجل ممن أحسنوا إليه فى نشأته الأولى مثل محمد عبده وحسن عاصم وسعد زغلول لأن هذا الرفض سمة الرجل الكريم تدفع عنه سبة النعمة المحدثه والمقام المدخول فإذا جاء فى صحيفة المؤيد شىء يمس هؤلاء مرضاة للحاشية الخديوية كان يترك كتابته لغيره أو يفرغه فى القالب الذى يوافق مظهر الكرام وينفى عنه شبهات العتب والملام.

الشيخ على يوسف والإمام محمد عبده

كانت بين الشيخ على يوسف والشيخ محمد عبده علاقة صداقة قوية كان لها أثر كبير في اتجاهات على يوسف السياسية مما دفع البعض إلى تفسير اعتدال على يوسف تجاه الإنجليز بعد حادث فاشودة بأن محمد عبده استطاع أن يخفف من شدة المؤيد وصاحبه في عداوته للإنجليز فهدأت لهجته وخفت حدته ورغم الصدام الذي حدث بين الخديو ومحمد عبده الذي بدأ في أول يناير ١٩٠٤ بسبب رفض الشيخ محمد عبده أوامر الخديو بتوجيه إحدى كساوى التشريفة إلى مفتى المعية فبدأ الخديو في شن حملة تشهير على الشيخ محمد عبده يتهمه فيها بال كفر والزندقة ولم يستطع الخديو خلال هذه الحملة أن يستخدم «المؤيد» رغم ارتباط صاحب «المؤيد» الشديد بالخديو فقد رفض على يوسف مهاجمة الشيخ محمد عبده كما كان يريد الخديو لكنه لم يقف مع الإمام في مواجهة الخديو حيث حاول إيجاد التوازن في علاقته بالأتين، وقد استمرت علاقته بالشيخ محمد عبده طيبة حتى وفاة الإمام محمد عبده فكرس صفحات الجريدة خلال الأيام التالية لوفاته لنشر المرائى التى اتهالت عليه تأبيناً للشيخ محمد عبده.

الشيخ على يوسف وحزب الإصلاح

عمت الصبغة الدبلوماسية كل منعى من مناحى تفكيره وعمله في السياسة وفي علاقاته بالسياسيين الوطنيين وغير الوطنيين وظهرت في كل تصرف من تصرفاته العامة حتى في صياغة المبادئ الوطنية التى قررها لحزبه أساساً للمطالبة بحقوق الأمة ونظام الحكومة فقد أوشك أن يجعل هذه المبادئ توريطاً دبلوماسياً من كلام المحتلين أنقصهم ليسكتهم ولا يفتح لهم باباً للاحتجاج على ولى الأمر أو اتهامه بتعريض الصحف والأحزاب عليهم حيث كان انتساب الشيخ على يوسف إلى القصر الخديوى أمراً مفروضاً منه مفهومًا بالتواتر بين دوائر السياسة الشعبية والرسمية فى القاهرة وعواصم الدول ذوات الامتيازات فى هذه البلاد وكان وكلاء المؤيد يزورون الدواوين خارج القطر كأنهم ملحقون بسفارات القصر قبل أن توجد له سفارات. كان الشيخ على يوسف يسمى حزبه بحزب «الإصلاح» ويصفه بأنه إصلاح على المبادئ الدستورية ولا يذكر الدستور على إطلاقه لأنه قد يزعم الدولة العثمانية صاحبة السيادة التى لم تكن فى بلادها حكومة نيابية وقد يزعم الإنجليز أصحاب السلطان الفعلى كما يزعم الخديو صاحب السلطة الشرعية، وحينما ذكر على يوسف الاستقلال ذكره مشروطاً بالمعاهدات التى ارتبطت بها بريطانيا العظمى وقال إن تحقيقه تقييداً لوعود هذه الدولة بالجلاء وقد زادت الوعود عن السبعين.

الشيخ على يوسف واللورد كرومر

اشتهر الشيخ على يوسف غاية شدة في الحملة على اللورد كرومر بعد عزله من منصب المعتمد البريطاني في القاهرة وقد كانت المعركة القلمية التي أعادت الهتاف بالحياة والتحية إلى مسمع الشيخ وجمعت الرأي العام كله على تعدد ألوانه وأذواقه في صف واحد مع الشيخ على يوسف فهي معركة عنيفة دارت بين الصحف ورجال السياسة حول توديع اللورد كرومر بعد خطابه الذي ألقاه على ملاء من كبار الموظفين وأصحاب المقامات الرسمية من المصريين والأجانب والشرقيين، واستطاع الشيخ على يوسف أن يكون دبلوماسياً وحماسياً إلى الغاية في دفاعه عن ولي نعمته الخديوي عباس حلمي الثاني خصم اللورد كرومر اللدود. كتب الشيخ على مقاله في السابع من شهر مايو ١٩٠٧ وكان حريصاً على ترويح الظن الذي شاع في البلد عن نجاح الخديو في مساعيه عند بلاط سان جيمس لعزل كرومر وتعيين رجل من أصدقائه في مكانه ولكن كان على حذر شديد من إعلان هذه الدعوى مخافة أن يغضب الدولة البريطانية ويضطرها إلى الأخذ بناصر عميدها المخذول صيانة له من مهانة الشماتة وصيانة لها من الاعتراف أمام الناس بخذلانها كرجالها وخدام سياستها، فكان الشيخ على يوسف على أحسن حال من الكياسة والإنصاف فاتهم كرومر نفسه بأنه فضح حقيقة الموقف بثورته المحنقة في خطاب الوداع ويسأل: لماذا كل هذا الحنق والرجل لم يفارق قصر الدوبارة على الرغم منه كما يقال؟ أي أنه فارقه رغم أنه واعترف الشيخ على يوسف لكرومر بكل مآثره من مآثره المدعاة فلا ينكر عليه حسنة واحدة يعتبر إنكارها عليه إنكاراً على دولته كلها من ورائه ثم يأتي بالخطبة الكرومية نفسها فلا يضيف إليها حرفاً من عنده بل يأخذها بنصوصها للإيقاع بينه وبين المحتفلين بوداعه وبين المتشيعين لسياسته والمسخرين أو المتبرعين بالشهادة لحكمه وحكم أعوانه ومستشاريه وكان الأمير حسين كامل على رأس المدعويين للاشتراك في حفلة التوديع، فلم يكن تعليق على يوسف نقداً للأمير عم الخديو بل كان إبرازاً واضحاً لإساءة كرومر إليه مرة بالإنحاء على أبيه إسماعيل ومرة بالسكوت عن الإشارة إليه كأن من سقط المتاع وهو حاضر أمام عينيه، فيقول الشيخ على يوسف في مقاله: «هذا الأمير الجليل الذي والى جناب اللورد بالصدافة زمناً طويلاً وخصه باحترام دائم وكان له في عهده أعظم أثر في خدمة البلاد معه خدمة حقيقية بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية لم ير اللورد أنه خليق بكلمة ثناء يوجهها إليه في جنب ما وجّه من عبارات الثناء لغيره من الأحياء والأموات» ولم يتخذ الشيخ على عن أحد من المحتفلين باللورد كأنه خصم يحاربه وكأنه صديق اللورد وموضع حظوته بل كان حديثه عنهم جميعاً كأنهم ضحايا وضحايا سياسته وسوء خلقه في حاضره وماضيه، وقال كرومر عن رياض باشا أنه علق الجرس في عنق الهر فكان ثناء على

يوسف على رياض باشا أكبر من شاء اللورد عليه ولكنه استدرك قائلاً إن اللورد لم يقل أن رياض باشا لما أراد في زمنه هو أن يعلق الجرس في عنق الهرة قطعت يده وحلف اللورد ألا يعود إلى خدمة الحكومة مادام هو في البلاد وزاده عقوبة فرقت ابنه من وكالة الداخلية في اليوم التالي من استقالة أبيه فكان المستبد إسماعيل أخف وطأة على رياض باشا من المستبد كرومر. وأثنى كرومر على بطرس غالي باشا ومدحه بسعة الحيلة في حل المشكلات فقال الشيخ على «نعم ولكنها المشكلات التي كان يخلقها اللورد بينه وبين الجناب العالي وبينه وبين قناصل الدول من جهة أخرى...» وتساءل الشيخ على «لماذا أعرض اللورد عند ذكر بقية الوزراء كأنهم ليسوا نظاراً في الحكومة وليس لهم عمل فيها؟ وقد أشاد كرومر بالوفاق الإنجليزي الفرنسي الذي تم على يديه، فرد عليه الشيخ على وسرد له سلسلة من الإساءات التي اقترفها في حق الثقافة الفرنسية والخبراء الفرنسيين وأنه يفعل ذلك حباً في مصر وأنه قال إنه يريد أن يحل محل كل قدم فرنسوية قدمًا إنجليزية ولم يكن كرومر يعدل عن هذه الخطة مرة إلا إذا جاء الأمر من رؤسائه في العاصمة البريطانية.

ويرى عباس العقاد أن براءة على يوسف في التعقيب على أقوال كرومر كانت هي البراعة الموصوفة للرد على كل كلمة فيها بما يناسبها ويقلبها على صاحبها عند أنصاره قبل خصومه والشامتين به وبمعهده. هكذا كان الشيخ على يوسف يحارب الاحتلال على طريقته في التحليل والتعقيب والرد حتى أنه جعل من المؤيد في ذلك الوقت أكبر منبراً وطنياً له سياسته الخاصة وأسلوبه المميز لكنه للأسف عندما ترك المؤيد بعد أن عينه الخديو عباس شيخاً للسجادة الوفائية في ٥ مارس ١٩١٢ انهارت «المؤيد» ولم تستمر بنفس الوهج.

وشـاوروه لدى الأرزاء والنوب^(١)
يوم النضال عن الأوطان والنشب^(٢)
وكان جمرة مصر ساعة الغصب
ما فى الأساطيل من بطش ومن عطب
من الرزايا وكم جلى من الكرب
ينسى الكماة صليل البيض والقضب
أن يشهد الحرب لم يسكن إلى يلب
السيف أصدق أنباء من الكتب^(٣)
بعد الفقيـد ويحمى حوزة الأدب
ما فى السياسة من زور ومن كذب
شيخ الوفائية الواضحة الحسب
معنى الثبات ومعنى الجد والدأب

صوتوا يراع على فى متاحفكم
واستلهموه إذا ما الرأى أخطاكم
قد كان سلوة مصر فى مكارمها
فى شقه ومراميه وريقته
كم رد عناوين الغرب طامحة
له صرير إذا جـد النزال به
ما ضر من كان هذا فى أنامله
فلو رآه ابن أوس ما قرأت
ألا فتى عرى يستقل به
ويمنع الحق أن يفتش تبلجه
أودى فتى الشرق بل شيخ الصحافة بل
أقام فىنا عصامياً فعلمنا

(١) يراع: القلم - الأرزاء والنوب: المصائب والكوارث.

(٢) النشب: المرض.

(٣) ابن أوس: الشاعر المشهور أبو تمام حبيب بن أوس الطائى.